المحاضرة الرابعة: مكوّنات الثقافة ونظرياتها

المطلب الاول: مكونات الثقافة

إن مكونات الثقافة مشتقة من مكونات المجتمع حيث تحتوي على معاني وقيم ومعايير تتطابق مع الضوابط الاجتماعية والتفاعلات والمنظومة القيمية المتعارف والمتفق عليها بين أفراد المجتمع وبناءاته مما يحقق التماسك، التلاحم ،الانسجام والوحدة للمجتمع ككل، ولذلك يختار المجتمع العناصر والمكونات الثقافية التي تؤكد فاعليتها وتشكل له قيمة مضافة، ويِدمّعويحمي المكونات والعناصر الثقافية التي تؤكد الهوية الأساسية للمجتمع،ويكتسب الفرد الثقافة من مجتمعه، ولكّنه لا يحمل كل ما فيها من مكّوِنات وعناصر.

1. العموميات الثقافية (أو النمط العام للثقافة):

هي مكّونات ثقافية يشترك فيها جميع أفراد المجتمع كاللغة والعادات والقيم والأخلاقيات والآداب العامة وأساليب الحياة والتفكير أو الترفيه المتعارف عليها.

وسعة العموميات وسوخها في مجتمع من المجتمعات يولّد اهتمامات ومشاعر وأهداف واتجاهات وطرق مشتركة تقود إلى مزيد من التَّماسك الاجتماعي،بينما تُخفّف قلة العموميات وضعفها من ذلك،وربَّما تقود إلى مظاهر التَّمزق.

2. الخصوصيات الثقافية:

عبارة عن مجموعة من الخصائص أو السمات أو العناصر الثقافية التي تشترك فيها مجموعة من أفراد المجتمع غالبا في مجتمعات مترامية الاطراف جغرافيا أو التي تكون على الحدود الجغرافية مع مجتمعات أخرى ، بحيث تكون لديهم قيم خاصة بهم أو عادات أو طقوس أو أنماط سلوكية تختلف عن تلك التي تنتمي إلى العموميات الثقافية

المذكورة آنفا، وقد تكون عبارة عن خصوصيات اجتماعية مرتبطة بالطبقة الاجتماعية أو تكتل اجتماعي أو الوحدة الاجتماعية كالأسرة أو قد تكون عبارة عن خصوصيات مهنية حيث تتميز كل مهنة في المجتمع بقوانين ومظاهر سلوكية وعادات وأعراف خاصة بها يكتسبها الزاما الافراد المنتسبون لها.

3. البدائل الثقافية (المتغيرات):

هي مكّونات وعناصر ثقافية جديدة تدخل على المجتمعات إّما نتيجة الاحتكاك المرغوب فيه مع الثقافات الاخرى عن طريق اقتباس أنماط سلوكية أو مظاهر حياة جديدة سواء كان ذلك بطريقة عفوية عشوائية أو بطريقة متعمدة كما هو الحال عند إجراء عمليات التبادل الثقافي(الفكري، التعليمي، الفني،..) بين المجتمعات المختلفة، و إّما عن طريق غير مرغوب فيه من خلال محاولات الغزو والاستيلاب الثقافي والفكري من دولٍ مختلفةٍ عنها، قوية اقتصاديا وسياسيا ومتواجدة بشكل جِلّيٍ ثقافيا، وفي هذه الحالة فهي لا تخضع للتجريب الثقافي كما يُفترض بها في الأصل لمعرفة ايجابياتها أو سلبياتها ومن ثمة معرفة مدى تقبل المجتمع لها أو رفضه.

ومن المفكّرين من يجد أن الثقافة تتكون من عناصر محدَّدة هي :اللغة و الّدين والنظم الاجتماعية والقيم والمعايير والايدولوجيا...الخ،والتي ستذكر ضمنيا ضمن نظريات الثقافة وما يليها من أفكار وتحاليل سوسيولوجية.

المطلبالثاني: نظرّيات الثقافة

أولا- النظرية الثقافية الاجتماعية:

تعود هذه النظرية للعالم ليف سيمينوفيتش فيجوتسكي، التي لم تعرف في الغرب حتى عام 1958، أساس هذا المدخل هو عملية صنع المعنى من خلال اللغة التي تعتمد على البيئة

الاجتماعية في التعلم. فالثقافة لا يمكنها ان تتجسَّد تجسُّدا محصَّنا إلاّ من خلال اللغة التي تحدِّد ملامح الهوية الشخصية الاساسية والمجتمعية وترسم خصوصيتها الثقافية والمعرفية، كون هذه الاخيرة تتكون عن طريق التفاعل الاجتماعي المرتبط بما يلي:

1- التفاعل الاجتماعي وسيلة يتم من خلالها الحصول على المعاني من خلال اللغة، واللغة هي المعاني التي يتم من خلالها التواصل بين الأفراد.

2- يعتمد المعنى داخل اللغة على البيئة الاجتماعية ، فالمرجع اللغوي الخاص بالأفراد يعود إلى الاحداث التاريخية والاجتماعية الخاصة ببيئتهم.

3- الغرض من اللغة هو استمرار العلاقات بين أفراد المجتمع.

وعلى ذلك فان تصرفات الفرد أو الأنشطة أو المواقف هي نتيجة التفاعل المنطقي بين هذه المكونات الثلاثة، وهذا الشكل من البنائية يركز على المواقف الثقافية. فعملية صنع المعنى يشكل من الثقافة كنتيجة للتفاعل بين الفرد والتاريخ والمؤسسات التي يتعامل معها الفرد .

وعليه تصبح الثقافة عملية تتعدَّل فيها المعرفة الداخلية للفرد كاستجابة للاضطرابات الناجمة عن كل من التفاعل الاجتماعي والشخصي اعتمادا على الخبرات.

ثانيا - النظرية الثقافية النفسية:

الذات كمفهوم وكمصطلحيحتل مساحة شاسعة في دراسات الشخصية بصفة خاصة، وميدان علم النفس بصفة عامة، حيث تعددت الأراء واختلفت التيارات المهتمة بدراسة الذات،كما تعدد المفكرون الذين اهتموا بدراستها يتحدثون تارة عن الروح وتارة أخرى عن الذات أمثال: جون لوك JHON LOOCKوجودرج بيركلي GEORGE BERKELYودافيد هيوم DAVIDHUMEوتوماس براون THOMAS BROWNوجيمس ميل JAMES MILLوإيمانويل كانط EMANUELLE KANT ولكن الفضل في تفصيل دراستها يعود الى النمساوي سيغموند فرويد Sigmund Freud الذي وضع أساس بناء النظريات

الخاصة بالتحليل النفسي حيث يعتقد أنّ الطاقة الغريزية التي يولد الطفل مزودا بها تمر بأدوار محددة بحياته، و أنّ النضج البيولوجي هو الذي ينقل الطفل من مرحلة الى أخرى، ولكن نوع وطبيعة المواقف التي يمر بها هي التي تحدد النتاج السيكولوجي لهذه المراحل ، فتجارب الفردالخاصة التي يمر بها في مراحل نموه المبكر تبقى فاعلة في العقل الباطن،واكتشف كيف أن المشاعر والأفكار والدوافع والأمنيات والأحداث، التي قد تبدو عشوائية، تحمل معانٍ خفيةتؤثر في سلوكهمن خلال الثقافة التي تخدم الإنسان وتتحكم في علاقات أجزاء المجتمع بعضها البعض ، بالتركيز على تأثير الغرائز والبحث عن محاولة ضبطها والتحكم فيها حتى تتمكنالوحدة الاساسية في المجتمع من خلال ضبط وتوجيه وتعديل سلوك أفرادها ، من أداء أدوارها ووظائفها المنوطة بها ضمن علاقاتها وتفاعلاتها مع البناءات الأخرى لتحقيق الاستقرار ثم التطور المجتمعي.

في هذا الصدد، يؤكد علماء النفس الاجتماعي (علم النفس-علم الاجتماع) على اهمية العوامل الثقافية في تحديد طبيعة المجال السيكولوجي للفرد وفي نمو اتجاهاته ومعتقداته، فمن خلال المؤثرات الثقافية التي لا تعمل في فراغ أو منعزلة، يكتسب الفرد الاتجاهات والمشاعر الايجابية كالشعور بالانتماء للجماعة ، فهي(أي المؤثرات الثقافية) تتدخل بشكل مباشر او غير مباشر في تكوين الأنا التي تبقى في حالة تغير وتعديل وتطور مستمر متأثرة بالتفاعل القائم بينها وبين بيئتها الخارجية الخاضعة للمثيرات الاجتماعية والثقافية حيث تكتسب أو تعدِّل هذه الانا مجموعة العادات والتقاليد والمعايير المكتسبة ومثال ذلك ما لوحظ في الحرب العالمية الثانية، فقد حدث نتيجة للضغط والحرمان والضيق والفزع الذي أحاط بالناس ، لذلك كله نسي الكثير منهم الكثير من معاييرهم الاجتماعية واتجاهاتهم وتخلوا عنها وبدأوا يبحثون عن وسائل ومعايير أخرى تحقق لهم الحياة في ظل الظروف الجديدة .

معنى ذلك أن الأنا قد استبعدت بعض عناصرها الثقافية التي لا تتلاءم مع الظروف الاجتماعية الجديدة، ثم أعيد تكوينها على أساس جديد يقوم على التزود ببعض العناصر التي تتناسب مع الظروف المحيطة ، ومثال ذلك ما يعيشه بعض الافراد في الدول العربية - رغم خضوع أكثريتهم للتعليم- إلا أنهم لا يزالونيعيشون في وسط ثقافي مشبع بالكثير من القصص والروايات ذات المصادر الغيبية والتي قد تشكل خطرا كبيرا على البعض منهم ;فحينما يشاهدونلقطات أو مواعظ تتحدث عن المسّ بالجان أو السحر ولا يجدون أمامهم سوى تجار رقية أو معالجين تنقصهم الكفاءة ، يبقى هؤلاء الأفراد تستحوذهم الوساوس والمخاوف والأوهام نتيجة تعرضهم لمكونات أوإيحاءات ثقافية خارجية ولان لديهم التكوين الذهني المتقبل لهذه الايحاءات، تقل ثقتهم بأنفسهمرغم ان ما يشكون منه لا يخرج عن مكونات المجتمع النفسية الثقافية السائدة(العين، السحر، الحسد،المسّ).حيث لا يزال التعمق في اللاوعي بغرض تحرير الرغبات (الغرائز) أو الصدمات، أو الدوافع ، خطوة ً شديدة الأهمية تجاه معرفة أصدق بالسلوك البشري.

ثالثا - النظرية الثّقافية الانتشارية:

يقوم التغير الاجتماعي على حقيقة أنَّ المجتمعات أجزاء منفصلة ماديا ومعنوّيا(الى حد ما) فهي بذلك أقرب للتّنوع والاختلاف عنه من النَّمطية والاِتسّاق ، ومن ثّمة فكل مجتمعٍ قادر على توليد ثقافته المتميزة التي تكون قابلة للتبني بواسطة مجتمعات أخرى في اتصالها مع غيرها. وقد ساهم ماركس Marx في دعم هذا الاتجاه حينما قدم رؤيته حول صعود الامبريالية ، ولاحظ أن المجتمعات التي تفشل في منافسة الامبريالية تتعرض للهبوط، مما يجعل الأفراد يتعّرضون لظاهرة الاغتراب في بعض الجوانب (جوهر الأنواع) نتيجة العيش في مجتمع طبقي ، فيصبح الفرد مغتربا عن ذاته نتيجة لكونه جزءاً مكانيكياً من الطبقة الاجتماعية ، وهو وضع يجعل الفرد يغترب عن إنسانيته ، وقد اعتقد ماركس أن الامبرياليين يعانون نفس القدر البروليتاريين من

الاغتراب الذاتي الإنساني نفسه ولكن في شكل مختلف ، فهم يجدون فيه ثباتهم وتطورهم وسيادتهم على الغيرومظهرا قويا للوجود الإنساني ، أما البروليتاريونفيشعرون في اغترابهم الذاتي بالمذلة والضعف القصري و الاستيلابوالانسحاق وحقيقة وجود لاإنساني. وقد ركزت النظرية الانتشارية على العلاقات بين المجتمعات كمصدر للتَّغير الداخلي.

ويؤخذ على هذه النظرية تناولها للمجتمع الانساني بكامله كوحدة للدراسة وانتقاء المعطيات الواقعية التي تؤيد هذه الدراسة ، فهي لا تدرك الواقع والمجتمع الانساني ككل عضوي متماسك وعليه يكون التطور الثقافي مجزأ إلى سمات أو مجموعات سمات ليس بينها أي رابطة .

رابعا - النظرية الثقافية التَّطورية:

إعتَمد اصحاب هذه النظرية على الفكر الطبيعي البيولوجي الذي يعتمد في تفسيراته على مبدأ أو فكر التطور والتغيير الحتمي المرتبط بالزمن ، فقد أشار أوجست كونت إلى الثقافة التطورية للبشر التي تصاحب قانون الحالات الثلاث حيث تطور العقل البشري خلالها ليتخلص في الاخير من الانفعال ويدخل دائرة الفاعل، ويبدأ في وضع المبادئ العقلية والضرورات والتفسيرات التي تقوم عليها الحياة والتي تكون ضرورية لتحقيق الاهداف التي يرسمها الأفراد والمجتمعات لأنّ خبراته وقناعته تتطور في إطار حوار متبادل بين نتائج المشاهدات والتجارب العلمية التي تصف سلوك الظواهر في الحالات المختلفة من جهة ومحاولات التنظير التي تضع فرضياتٍ تفِّسذلك السلوك من جهة أخرى عبر الزمن ، وإن كانت ثمة مواقف رسمها الانسان استخدم فيها المنهج التجريبي ، ومواقف أخرى لا يزال بعض الناس يلجؤون فيها إلى التفكير الخرافي والميتافيزيقي حتى هذا اليوم ، وإن كان جون سوليفان John Sullivan يشير في هذا الصّدد إلى ما يسّمى (نظرية التطور الطارئ) يقول فيها : " إنّ خواصَ جديدة بصورة جذريةٍ تبرز إلى الوجودِ في مراحل مختلفةٍ من التعقّد الذي يصل إليه الكيان المادي ، فالحياة والعقل كلاهما قد

عُدَّا وفقا لهذه النظرية خاصيتين طارئتين على مجاميعَ ماديةٍ معّينة " .وإن كان اميل دوركايم قد أشار الى دور تطور الكثافة السكانية تبعا للانتقال عبر المراحل الاجتماعية والاقتصادية في تحقيق التكييف بين الافراد مما يؤدي الى سلسلة من التطورات في الجانب الثقافي لهم نتيجة الاحتكاك وان كان رغم الهفوات المسجلة إلا أن توجهه النفسي والاجتماعي كان ملموسا في أهم دراساته حول تقسيم العمل ضمن مجتمع اعتقده استاتيكيا.